الغريب والكلاب

صديق حامد نزاركي - العراق

حقاً.. إنّ القرية التي عيّنتُ فيها بعيدة(*) وعلى الحدود، لكن لا بأس.. يطيب لي كثيراً أن أختفي فيها حولاً، وأبتعد عن عيون البلد.. ها هي ذي يدي على قلبي كلّ لحظة، لا أعرف متى أبتلى وأصبح ضحية تقرير حاسد أو شاهد زور، في ظل هذه الظروف التي أعيش فيها!

حسناً.. سأذهب.

لعلّي أهوّن من قلقي، ويطمئنّ بالي زمناً، وأنام صافي الفكر لا أحد يتجسس علي، أو يسترق السمع ليعلم ماذا أفعل في عقر داري. نعم.. لأذهب.

مرّةً أخرى أتعلل بهواء القرية، وأنتعش بمائها العذب، أواكب تلك الأيام السالفة من العمر.

فبعد مسيرة الساعات الأربع من النقطة التي استطاعت السيارة أن تقلّنا إليها، وبعد إرهاقٍ مضنٍ جرياً من جبلٍ إلى آخر، ومن صعود إلى نزول، مرةً نمشي على الثلج، وأخرى على أوحال الطريق..

وصلتُ مع أفراد من أهل القرية في أمسيّةٍ متأخرة، إلى المرتفع المطلّ عليها.

ما أن لاحت شخوصنا لكلاب القرية، حتى بدأ النباحُ، وهبّت الكلاب من كلّ أرجاء القريةِ، كأنّ كلّ واحدٍ ينادي صاحبه، وانتهى الجمعُ إلى مقدمة القرية، كان عددها أقلّ من بيوت القرية بقليل، اشتدّ النباح شيئاً فشيئاً، ثمّ بدأ الهجوم نحونا.

ها هو الغضب آتٍ، كأنّها قطيع من الذئاب فيه الأبيض والأسود والمرقّع.

والله! لو لم يكن معي هؤلاء النفر من أهل القرية، لكانت تمزّقني إرباً إرباً، كنتُ أتوسطهم وهم يدفعون عني هرج كلابهم من جميع الجهات.

- أستاذ.. كلابنا ضارية!.

- نعم! إنّها على حقّ، إنّها تؤدي ما عليها من واجب بكلّ إخلاص، ومن أعماق قلوبها.

- كيف يا أستاذ!

- انظروا، كيف تحمي القرية من الغرباء!.. آه.. آه.

- نعم.. صحيح، لكن أما ترى، حتى مع الضيوف!؟

- هذه كلاب!.. لها كلّ التقدير،

إنها لا تتخلّى عن حقها لأحد، انظر كيف لا ترى أمام أعينها أحداً، لاستعادة حقّها منه، و دفاعا عن القرية من تهديد الغرباء!؟.

- نعم! نعم! فنحن في أمانٍ بها، ثق أنّها تمنع كل شيء من القرية، اللصوص، السباع، الأوغاد.. إنّها مسعورة.

- يا ليت كلّ من يدّعي الإخلاص يكون مثلها في مشاعرها، ويجعلها ثورة في كيانه، انظروا.. كيف تدور حولنا للنيل مني، وأوشكت أن تأخذني من بين أيديكم! وتقول:

من أين لكم هذا الأفندي!؟ كيف يدخل القرية ونحن على قيد الحياة.!؟

بهذا الهرج والضجيج، دلفنا باب بيت المختار وكان في مقدمة البيوت، بعد أن تجمّع أهل القرية علينا، وبشّرهم ضجيج كلابهم بأنّ معلماً جديداً قدم لمدرسة القرية، بديل الذي كان من قبلي.

بعد برهة من الجلوس، خطر ببالي أول سؤال هو: كيف كان المعلم القديم يدبر الأمر مع هذه الكلاب!؟

بادر إلى ذهني هذا السؤال، لأن هؤلاء النفر الثلاثة كانوا يدرؤون عني أذى الكلاب بكلّ مشقّة إلى أن وصلنا إلى القرية..

كيف كان يستطيع معلمهم الخروج والتجوال؟.

- والله يا أستاذ إن الكلاب عضت ساقه مرتين أو ثلاثا، كنّا نرافقه دائماً في ذهابه وإيابه.

- كلابنا ضارية (أردف الثاني) لكن لا تخف، يا أستاذ.

هذا الكلام شدّ عليّ الخناق، وأرعبني أكثر.. كيف أتجوّل في القرية!؟

لقد قلتُ.. وكان في ظني، أنّني سأترك البلد لأستريح، لم أكن أعرف أن المصير سيكون كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

همد الهرج قليلاً وتفرّقت الكلاب، لكنّ كلب المختار ظلّ هائجا لا يبرح باب البيت، وكلّما سمع صوتي جُنّ جنونه.. فلا يهدأ.. كاد أن يخطفني من عقر الدار.

لا زلت أهذي مع نفسي.. كيف أتدبر حالي في هذه القرية!؟.. مالي والعيش مع الكلاب!؟.. كيف أصل يومياً إلى المدرسة، أو أذهب لقضاء حاجة!؟ ناهيك أن أقوم في جولة حرّة بضواحي القرية.

كنت أضطر كلّما خرجت من البيت أن يرافقني شخص أو شخصان، شاء أم أبى، يحفظني من أيدي قطاع الطرق الجدد، لأن الاحتراز لم يكن من قبل كلب واحد، بل كلّما نبح أحدها، عمّ الصوت أرجاء القرية، وتكالبت علينا، فكثيراً ما كنت أسأل ما إذا كانت الكلاب في طريقي أم لا، فكان بعضهم يبدو ضاحكاً، والآخر خجلاً، لأنني أعاني الأذى منها.

* * *

عليّ أن أعالج الأمر، كيف يمضي الوقت هكذا!؟ فليس هو مكث يوم أو يومين.. إنها سنة كاملة.. فالأجدر بي أن آخذ بيدي عصاً وأطرح بها أرضاً كل كلب يقصدني، لكن هذا ليس سبيل العلاج! قد تتمكن الكلاب مني وتؤذيني أكثر.. فماذا أعمل!؟

فكرت أن أتدبر الأمر بسمّ زعاف حتى لا يبقى كلبٌ واحدٌ في القرية؟ ولكن هذه الطريقة أيضاً ليست حلاً. ماذا أقول لأهل القرية!؟ ثم إنه لا يليق بي هذا العمل، ثم ماذا ؟! ألازم البيت، أعتكف فيه ولا أخرج إلى أن تنتهي السنة الدراسية! وهذا أيضاً لا يجوز! هل أسجن نفسي في البيت بقية العام!؟

في أحد الأيام كنت مرافقاً المختار في إحدى ضواحي القرية - وأنا في حيرتي - فإذا بمجموعة من كلابها هجمت علينا، وبالأحرى عليّ لا على المختار.

كان من بينها كلب ضخم، ولما اقترب منا الهجوم وقف الكلب الضخم فجأة، فوقفت الكلاب الأخرى مسمّرة الأقدام!

سألت المختار: ما بالها وقفت هكذا فجأة؟

أجاب: إن هذا الكلب الضخم هو كلبي، وهو أقوى من كل كلب في القرية، وهي جميعا تخافه! انظر حينما وقف؛ وقفت الكلاب إثره... إنه (كرزو) هو كلبي النشط المسعور.

- طيّب!.. لقد عرفت.

قلت في نفسي: جيد، إن مشكلتي مع كلاب القرية انتهت، وأصبحت سهلة.. فلأجعل من هذا الكلب حارساً أميناً لي من كلاب القرية، وستزول مشكلتي مع الكلاب الأخرى..

في اليوم التالي تحدثت مع بيت المختار قائلا: أنتم تعرفون مشكلتي مع كلاب القرية.. فأرجو منكم من اليوم فصاعداً أن لا تطعموا كلبكم، لأنني أريد إطعامه بيدي، لكي يتآلف معي، حيث لا أستطيع التجوال في القرية، ولا أقدر على الذهاب إلى المدرسة، أو الرجوع منها خوفاً من أن تهاجمني الكلاب، وتخرش ساقي عضاً.

قالوا: فليكن كما تريد يا أستاذ، حقاً.. نحن أيضاً نشعر بذلك، ونخاف أن يؤذيك الكلب، ونستحيي منك.

* * *

لقد تعلمت أولاً.. كيف أنادي (كرزو)، وتعودت مضطرا على إجادة نغمة الصفير المتبع هناك لاستفزاز الكلاب، كي أروضه مثلهم، وهم بدورهم تركوه جائعاً.

ناديت ابنهم وقلت له: اصطحبني لأطعم الكلب، لأنني وحدي لا أتجرّأ.

فأجاب: حسناً يا أستاذ، حقاً إنه جوعان.

لم يقبلِ الأكل من يدي، حينما قدّمته له، بل احمرّت عيناه غضباً، واستعد للمنازلة كأنه يقول:

أنا أتناول الطعام من يد غريب مثلك!؟ لا فرق بينك وبين الذئب في هذه القرية!!

وأنا أيضاً أقول: وعد مني أن لا تأكل الطعام إلا من يدي.

تركته جائعا، وكررت الطلب من بيت المختار أن لا يطعموه.

إنّه الشتاء والثلج، فليس من السهل أن يتوافر الأكل للكلب إلا من يد إنسان، وفي تلك الأيام اشتد سعار الكلب، وأنا جوّعته أكثر.

حظيت بشاة ميتة، كانت مكسباً جيداً لمهمتي، في الصباح قطعت منها الفخذ وناديت الكلب وقد أنهكه الجوع! نظر نحو باب غرفتي الملحق ببيت المختار، وكان بجانبي ابن صاحبه، فوثق قليلا، ثم نهض وأقبل نحو الفخذ مع زمجرة ساخرة، تشي بأنه على كبريائه، اقتربت منه قليلاً، ثم رميت الفخذ أمامه، وتراجعت سريعاً خلف الولد، تسمّرت قدماه وظل يحدق بي، بقدر ما أقول في نفسي: كيف أقضي الأيام الباقية مع كلاب هذه القرية!؟

ترد عيناه:

وكيف أتغافل للغرباء ليطمئنوا داخل القرية؟

وخاصة حينما أرى (أفندياً!) يخلب العقل، فكيف أتناول الطعام من أيديهم؟.

ولكن على وجه الاضطرار اشتم الفخذ وأخذه جانباً، بدأ يأكل كارها دون رغبة.

عرفت أنني أخذت برأس الخيط، وقضيت على الكلب الضخم، وإن شاء الله.. بعد اليوم أسير في القرية مطمئنا من شرّ كلابها ولو دخلتها بيتا بيتا.

في اليوم التالي ناديت الكلب وتركت الباب نصف مفتوح خوفاً من أن يهجم علي، ثم أخرجت قطعة

من لحم الشاة من تحت الثلج الذي قد داهم المنطقة وغطى كل أرجاء القرية، ولوّحت بها له، أقبل مرحاً ومع زمجرة ثائرة، رميت له تلك القطعة.. فراح ينظر إليّ وإلى قطعة اللحم ويشمها.. ثمّ أخذ يتردد..

. هل آكل أم لا؟!

كأنه قال: حسناً إنني مضطر..

لم تمض ساعة، ناديته مرةً أخرى، رأيته يهزّ ذيله! عرفت أنّه نزل من كبريائه قليلاً، وهو يحدق بي.

. ها!.. ماذا تريد؟ تبّاً لك.. لأسمّننَّك من أديمك، ثمّ أجعلنَّك تأكل طعامك على عتبة داري، وسوف تتوسل كي أمنحك كسرة خبز، وأناديك بإشارة الأصبع.. امض.. لا أعطيك شيئاً في هذه المرّة!.

بعد العشاء خرجت من البيت، أحببت أن أظهر له ليراني في الليل، لأن الكلاب في الظلام تتسعَّر أكثر.

ناديته.. وما إن سمع صوتي، حتى تخيّلت له صورة اللحم، فتقدّم نحوي وهو يهزّ ذيله، وقد هدأت تلك الزمجرة إلى هرير لطيف، لكن..

. إنني لازلت على هيبتي.. فهل تناولني مقداراً آخر من اللحم، لا ضير أن أزمجر قليلاً.

وما إن ألقيت له الفخذ الثانية، حتى تناوشها بقفزةٍ مفرحة وأكلها في موطئ قدميه.

نوى الانصراف، قلت له مهلاً، تعالَ.. فقد آلفتك بمشقة وببالغ الصعوبة!.. ألهيته بالنهنهة والمزاح، آملاً أن يعرف صوتي ويسمعني بهذه الكلمات:

كن وفيّاً .. فقد تصادقنا معاً، ستأكل اللحم من يدي يوميّاً، وسأقلّدك زمام كلاب القرية، هل فهمت مني؟

آسفٌ! إنّه كلبٌ.. وأظن أنه لم يفهم شيئاً.

في الصباح فتحت الباب، رأيته باسطا ذراعيه أمام الباب ينتظر اللحم.. ما إن رآني حتى نهض وعيناه تبوحان بالجوع والاشتهاء.

دفعت كتف الشاة إليه فالتقمها، وبدأ يأكل دون أن ينظر إليّ، ومن خلال تهافته على الأكل قرّبت رجلي من فوق رأسه، بدا عليه علامات عدم الرضا، لكني كنت أمهله، أداعب رأسه برجلي، أيقنت أنه يستنكر هذه الدعابة بالزعنفة والتمشيط ولا يهمه أن رِجلا فوق رأسه أم لا!..

. هيا.. انهض وانصرف.. كي تتعود الإهانة والطرد.. ها..! لماذا لا تذهب؟؟ استطبت المكان؟ هل خدر الطعام رأسك، والتهيت به!؟ والله.. لو أن أرجل أهل القرية كلها فوق رأسك فلن يحرك عندك من الغيرة قيد شعرة، ولا يتعكّر مزاجك عليك!.

يا كرزو! في نيتي قريباً أن أسافر إلى خارج الوطن، فإذا ذهبتُ أحببت أن أصطحبك معي، ونذهب إلى دولة أوروبية، لترى هناك، كيف أنهم يقدّرون الكلاب.

ـ مكانك! مهلاً أصغ إليّ..

هناك تصبح كلب اليوم والعصر، بدّل اسمك وتعلّم لغة أخرى، نعم .. شرائح لحم الخنزير، شراب، أمور ودعوات أخرى.. فيها الحرية كما تشاء وتحلم به!!

احلق شواربك، غير لونك بمئات الألوان، اجعل من نفسك ذكراً أو أنثى بحرية

ها!... لا تزمجر، أنت الذي تغيرت سريعا هكذا في عقر دارك، فلابد أن يجري عليك أعظم منه في أوروبا.. وأنت لها.

لا تقل، صاحبي أو قريتي! أو حظيرة الماشية! فهناك الحمراوات والشقراوات تنسيك الجوع، وهذا الثلج وأشباح الغرباء كلها. ولك بعد سنين، أن ترجع يوما، زائراً كلاب القرية.. أستاذا ومربيا، لتعرفك حقّ المعرفة.. والآن اذهب.. اذهب، وحين الظهيرة أنت مدعوّ إلى الكتف الثانية للشاة، لكن ليس هنا بل على باب المدرسة، حتى تتعرّف عليّ هناك أيضا... إذن اذهب الآن!.

في الظهيرة رجعت إلى البيت، دون أن أناديه، رأيته على باب البيت يهز ذيله، فعلى مرأى منه أخرجت الكتف من تحت الثلج ووضعته في كيس النايلون الشفاف حتى يراها، هيجته برائحة اللحم ولونه وعرفت أنني أمنته..

أمشيته خلفي حتى أوصلته إلى المدرسة، ولمّا رآني كلاب القرية، في الطريق وأمام باب المدرسة، تحرشت بي مرّةً أخرى، ولكنها فوجئت واندهشت، بأنّ (كرزو) الضخم معي، وأنا ألوح له باللحم وأمازحه، وقف كلّ كلبٍ في مكانه ينظر إلى (كرزو) علّه يتحرش بي فيدع لهم الفرصة لذلك.. لكن لم يصدر منه صوت ولا حركة.

الكلاب تعيد النظرة إليه، ثمّ نحوي والغضب يتطاير من وجوهها، أوشكت أن تقول:

ـ كرزو! كيف ومتى أصبحت صديقاً للأفنديّة الغرباء! وأيان غرّك هذا؟!

ـ ياللعجب!... أردف الآخر: متى أضلّك هكذا!؟ البارحة كان هذا الأفندي الغريب ذئباً عندنا في القرية، انظروا كيف صار محبوباً له؟ نعم.. نعم نعرف أنّ اللحم أرمد عينيك في هذا الشتاء.

ـ ليس هذا ببعيد!.

ـ شاهت وجوهكم، كفاكم نباحاً، إذا عرفتم أنّ النباح لا يجدي نفعاً، فما الفائدة منه؟.

ـ والله إنّ الأفندي الغريب قد أضلّك، يتراءى ذلك من عينيك، لكن ماذا نفعل بسفيه مثلك!؟.

ـ في كلّ مرّة كنّا نستنفر ونستفز لنجدتك، وكنّا يداً واحدة، وقلباً واحداً، وكلمة واحدة.. ماذا حلّ بك!؟ نظر كرزو تجاه الكلاب، وأصدر صوتاً خفيفاً وكأنه يقول لها:

ـ ها ها ها.. السفيه من لم يذق اللحم هذا الشتاء!.

احمرّت العيون في رؤوس الكلاب من شدّة الغضب والهياج والزمجرة، اختلّت موازين الرؤى

عندها، كل واحد منها أصبح نـدّاً للآخر، ومن شدة الغضب لم يعد أحد يعرف صاحبه، فبقدر ما تضايقت من الجوع، أسعرها الغضب أكثر، ولما رأت أنها لن تشفي غليلها، تهارشت فيما بينها، لتصب جام غضبها على أنفسها.. مما ذاقت من ضيق وإهانة من الأستاذ وكرزو.

فمن عنف العراك.. قلّبت الوحل فوق الثلج من تحت أقدامها، وكل من يبطح أرضاً كان الكل تخرشه وتمزقه.

هبّ أهل القرية ولكن لا أحد يستطيع الفصل بينها.

- ما الذي حدث؟

- ما هو السبب.. وما هذا؟

- يا أستاذ! لم يصدر من كلابنا هذا يوماً، ولم تتعارك بينها هكذا؟

أخيـراً.. تفارقت بمشقة.. فمنها المدمى والجريح، ومنها مكسور الرجل، ومنها من لا زال مطروحا أرضاً. انتهت المعركة ولم ألـوّح باللحم لكرزو!

بدلاً منها ألقيت له كسرات من الخبز، تظاهر بالأكل دون اشتهاء، وظلت عيناه تنظران إلى اللحم.

ناديته بإشارة من أصبع...

- هيا لنذهب.!

قام وتبعني كأنه يقول:

-لا أنقض هذه الصداقة ولو أطعمتني كسرات الخبز.. لا أنقض!■

(*) كتبت هذه القصة باللغة الكرديّة، وألقيتها في أمسيّة أدبية في اتحاد أدباء الكرد/ فرع دهوك، ونشرت في مجلتها (بَيف)، ثم أعدت صياغة القصة باللغة العربيّة.

بُكاءُ النخيل

عبد الرحيم الماسخ - مصر

سمعتُ بكاءَ النخيل
كما سمعتهُ الصحابةُ بعد انتقال الرسول
إلى منبرٍ بعدَ جذع
بكى فزِعاً
هبط المصطفى فأتاهُ، احتواه
فنهنهَ بين يديه
كنهنهةِ الطفلِ بين يديْ أمّهِ
هابطاً من قطارِ الكوابيس
يبكي النخيل
فلو حاصرتهُ الحرائقُ أطفأها بالدموع
ويغرسُ في الشمس أهدابهُ
ويُديرُ مظلاّتهِ هابطاً
لا يقولُ: اترُكوا الطميَ ليْ
وخذوا الشهدَ
يعرفُ أنّ حصاراً بحجمِ الردى لا يُفسّرُ رُؤياه
والليلُ لا تحتوي مُقلتاهُ رياح السبيل
بكى النخلُ، مات بُكاءً
لأنّ الرسولَ قضى
تركَ اليُتمَ للظامئين - و قد فقدوا الأرضَ – ماءَ.